

"الصَّابئة" في القرآن

د/ عبد القادر النفاتي

المعهد العالي لأصول الدين،

جامعة الزيتونة.

يشكل موضوع "الصَّابئة" موضوعاً مهماً جديراً بالدراسة، نتيجة لما يتسم به من خصائص وجاذبية تشدّ كل باحث متقصّ في الشأن الديني، وكل مهتمّ بأحوال الملل والنحل، وتتجلّى أهميته في الإشارة إلى غموض هذا المذهب من قبل أغلب الباحثين فهو لم يحظ باهتمام مراكز البحث الاهتمام اللازم وذلك بالرغم من قيمته وإسهامه في تطوّر الفكر والثقافة العربيين، وما صدر في هذا الغرض إنّما هو مجرد معالجات عامّة لا تشفي الغليل ولا تروي ظمأ الباحث الجاد.

أضف إلى ذلك فإنّ حديث الآيات القرآنية عن "الصَّابئة" لم يدرك منه بعض المفسّرين بعدُ حقيقة القوم، الأمر الذي اقتضى فهماً معمّقا وقراءة جديدة ودراسة متأنية تدرك المغازي وتحيط بماهية الأشياء، وقد مثّل هذا بدوره داعياً أو اعتباراً مهماً حفّز على الإلمام بحقيقة المسألة، وخوض غمار البحث فيها.

ومن دواعي البحث والاهتمام أيضا اختلاف الباحثين المسلمين في أمر الصابئة فمنهم من عدّهم ضمن أهل الوثنية ومن عبّاد الكواكب والنجوم والملائكة، ومنهم من جعل ديانتهم ديانة سماوية ويعامل أهلها معاملة أهل الكتاب.

ضمن هذا الأفق نتجس في الحقيقة جملة من الاستفسارات والتساؤلات لعل أهمها :

ما حقيقة الصابئة ؟ وما هي أبرز المعطيات التي نسج التاريخ بها ملامحهم ؟ وما مدلول الآيات القرآنية التي وردت في شأنهم ؟ وكيف كان تصنيفها لهم ؟ هل جعلتهم ضمن أهل الإيمان والتوحيد، أم حشرتهم ضمن زمرة الكفر والعناد والجحود، أم أنّ الآيات فصلت القول في شأنهم ودعت إلى ضرورة التفرقة وعدم التسرع في الحكم لهم أو عليهم ؟

ثمّ كيف استطاع "الصابئة" أن يحافظوا على هويّتهم وخصوصيّاتهم، وذلك بالرغم من الاضطهاد وألوان التشييت والتكيل التي تعرّضوا لها خلال حقبة تاريخية مختلفة ؟ وكيف عاملهم المسلمون القدامى ؟ وما هي مقتضيات التواصل والتعامل معهم اليوم ؟

1 - مفهوم "الصابئة" :

ورد في لسان العرب لابن منظور : "صَبَأٌ يَصْبَأُ صَبَأً وَصَبُوءٌ وَصَبُوءٌ يَصْبُوءُ صَبَأً وَصَبُوءٌ أَكْلَاهُمَا خَرَجَ مِنْ دِينٍ إِلَى دِينٍ آخَرَ كَمَا تَصْبَأُ النُّجُومُ أَي تَخْرُجُ مِنْ مَطَالِعِهَا....وكانت العرب تسمي النبي صلى الله عليه وسلم الصابئ لأنه خرج من دين قريش إلى الإسلام ويسمّون من يدخل في دين الإسلام مصبوءاً لأنهم كانوا لا يهزمون فأبدلوا من الهمزة واواً ويسمّون المسلمين الصبئة

بغير همز كأنه جَمَعَ الصابي غير مهموز كقاضٍ وقُضاةٍ وغازٍ وغُزاةٍ وصَباً عليهم يَصْبأ صَباً وصَبُوءاً وأَصْبأ كلاهما طَلَعَ عليهم..⁽¹⁾

بناء على هذه المعطيات يتبدى لنا أن المدلولات اللغوية لمادة "صبا" تشير إلى معنى الخروج، أي خروج الرجل من دين إلى دين، وتبديله المعتقد القديم بمعتقد جديد، وهذا يؤكد حقيقة مهمة مفادها أن الصابي قد اختار الدِّين الجديد نظراً لما تبين له من تهافت ما كان عليه، وصحة ما فضله وارتآه، وذلك بغض النظر عن مدى صدق تلك الرؤية أو خطئها عند الآخرين.

إنه من هذا الباب حقيقة تفسر تسمية قريش للنبي صلى الله عليه وسلم بكونه "الصابي" كما أشار إلى ذلك ابن منظور لأنه قد ترك في نظرهم دينهم الذي وجدوا آباءهم عليه، وخرج منه وبذلك بدين جديد مغاير لما ألفوه، ويفهم أيضاً قول سهيل بن عمرو: "يا آل غالب أأراكون أنتم محمداً والصبأة من أهل يثرب يأخذون غير انكم وأموالكم"⁽²⁾، على أساس أن محمداً صلى الله عليه وسلم والصبأة خارجون عن ديانة قريش ولا يدينون بدينها، وهو ما يشكل خطراً في نظرهم على الأنفس والأموال والثمرات، كما يتضح أيضاً المعنى اللغوي لكلمة "صبا" في حديث عبد الله بن عمر حينما قال: "لَمَّا أَسْلَمَ عُمَرُ اجْتَمَعَ النَّاسُ عِنْدَ دَارِهِ وَقَالُوا صَبَاً عُمَرُ وَأَنَا غُلَامٌ فَوْقَ ظَهْرِ بَيْتِي فَجَاءَ رَجُلٌ عَلَيْهِ قَبَاءٌ مِنْ دِيْبَاجٍ فَقَالَ قَدْ صَبَا عُمَرُ فَمَا ذَاكَ فَأَنَّا لَهُ جَارٌ قَالَ فَرَأَيْتُ النَّاسَ تَصَدَّعُوا"⁽³⁾ عَنْهُ فَقُلْتُ مَنْ هَذَا قَالُوا الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ"⁽⁴⁾.

(1) ابن منظور : لسان العرب، دار لسان العرب بيروت، تقديم عبدالله العلايلي، إعداد وتصنيف يوسف خياط، 2/399.

(2) المقرئزي (تقي الدين أحمد) : إمتاع الأسماع، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1951م، 1/67.

(3) تَصَدَّعُوا : أَي تَفَرَّقُوا عَنْهُ.

(4) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حديث رقم : 3576.

إنّ الدلالة اللغوية لمادة "صبأ" إذن والتي تشير إلى معنى الخروج والترك والتغيير لم يبتعد عنها كثيرا الشهرستاني حينما قال : "وفي اللّغة صبأ الرجل إذا مال وزاغ، فبحكم ميل هؤلاء عن سنن الحق، وزيغهم عن نهج الأنبياء، قيل لهم الصابئة"⁽⁵⁾، فلقد اعتبر صاحب الملل والنحل أن كلمة "صبأ" دالة على الزيغ والضلال والخروج عن الحق، اعتبارا برأ فيه في الواقع النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه من الوسم الذي أطلقته قريش عليهم.

إنّه من هذا المنطلق يتّضح لنا أن المفردة دالة على الحركة والفعل أي على عمليّة الترك والتغيير والخروج أيّا كان هذا الخروج وفي أي اتجاه ديني كان، سواء أكان ذلك نحو الصابئة أو نحو الإسلام أو نحو غيره من الملل والمذاهب، علما أنّها اشتهرت للدلالة على الاعتقاد الديني الذي يعتنقه الصابئة.

إنّه لجدير بالذكر أيضا في هذا المستوى أن للصابئة أصحاب الشأن مفهوما دلاليا آخر لمادة "صبأ"، فكلمة صابئة في نظرهم "مشتقة من كلمة صبا ياصوا المندائية الآرامية وهي من فعل صبا صابي الآرامي ومعناه التعميد حيث يردّد الصابئة أثناء مراسم التعميد قول (انش صابي بمصبته شلمى) كل من يتعمّد بالمعمودية يسلم، كما يقولون أيضا (صبينا المصبته أدبهرام ربه) أي تعمدا بعماد إبراهيم الكبير"⁽⁶⁾.

على هذا الأساس إذن يتبدّى لنا أن أصل الكلمة (صبا) عند أصحاب الشأن كان آراميا يشير إلى معنى التعميد، والارتماس والاغتسال في الماء الجاري والانغماس فيه، وإلى معنى الانغمار والاصطباغ، وهي معان مهمة وعديدة كما يلاحظ تلقّي عند بؤرة واحدة مفادها التطهير والارتباط بالماء

(5) الشهرستاني : الملل والنحل، تقديم وتعليق صلاح الدين الهواري، دار ومكتبة الهلال ببيروت 1998، 2/ 13.

(6) أحمد (جابر) : مقدّمة كتاب سليم برنجي : الصابئة المندائيون، دراسة في تاريخ ومعتقدات القوم المنسيين، دار الكنوز الأدبية ببيروت، الطبعة الأولى 1997، ص : 15.

وآداء طقس ديني محدّد يمسي صاحبه معمّدا سالما، ولعلّه من هذا الباب نفهم التسميات المختلفة التي كان الباحثون يطلقونها عليهم⁽⁷⁾، فقد سمّاهم ابن النديم بـ"المغتسلة" وبـ"صابئة البطائح" كما ذكر ذلك في "الفهرست"، وسمّاهم عباس محمود العقاد بـ"السابحة" كما أورد ذلك في كتابه "إبراهيم أبو الأنبياء"، كما يسمّون أيضا بـ"الطاهرين" وبـ"الطائفة المعمدانين"⁽⁸⁾، مع العلم أن هذه الجماعة كان يطلق عليها أيضا كما يذكر ذلك تيودور برخوناي (أواخر القرن الثامن الميلادي) في زمانه أسماء عديدة مثل "المندانين" و"المشكينائين"⁽⁹⁾.

إنّ هذه الرؤية التي تعود بالمصطلح إلى مدلول الاغتسال وتربطه بالماء والتعميد قد أيّدها في الواقع عدد من الباحثين والمستشرقين أمثال "البروفيسور أوليري" و"تولدكه" و"الليدي دراور"⁽¹⁰⁾.

إنّه أمام هذا التنوّع الدلالي اللّغوي لكلمة "صبا" حقيق علينا في الواقع أن نحيط بالواقع التاريخي لهؤلاء القوم لنقترب من حقيقتهم أكثر.

2 - في تاريخ "الصابئة" :

لم تحسم المصادر والمراجع في الحقيقة زمن ظهور الصابئة على مسرح التاريخ، ولم تحدّد وجودهم التحديد المضبوط والدقيق، وكلّ ما يقرأ في هذا الشأن ما هو إلّا مجرد افتراضات أو تكهّنات لم ترتق بعد إلى مستوى التأكيد واليقين.

(7) محمد عبد الحميد الحمد : صابئة حران والتوحيد الدرزي، دار الطليعة الجديدة دمشق سوريا، الطبعة الثالثة 2004، ص : 21.

(8) سباهي (عزيز) : كتاب أصول الصابئة ومعتقداتهم الدينية، دار الثقافة والنشر، دمشق سوريا، الطبعة الثالثة 2003، ص : 195.

(9) المرجع نفسه، ص : 196.

(10) حمادة (محمد عمر) : تاريخ الصابئة المندائيين، دار الوثائق دمشق سوريا، الطبعة الأولى 1481هـ/ 1998م، ص : 29.

لكن أبرز ما يستفاد في هذا السياق أن الديانة الصابئية المندائية هي من أقدم الديانات، وقد ذكر أتباعها لتأكيد ذلك واعتمادا على بعض مصادرهم المقدسة أنّ ديانتهم تعود إلى آدم عليه السلام بوصفه المؤسس الأول و"أول مبشر ونبي لدى الصابئة وصاحب كتاب كنز ربا أو صحف آدم والتي تعني الكنز الكبير"⁽¹¹⁾، علما أنّهم يقرّرون هذا المعطى خاصة حينما يتحدثون عن كيفية خلق الله للكون، وبدء الحياة البشرية الأولى، وبعد آدم مرت الديانة بعدد المراحل عرفت في بعضها القوة والتطور وفي بعضها الآخر الضعف والانزواء والوهن، وعرفت أيضا أثناء تلك المراحل ظهور عديد الأنبياء والمصلحين والقادة مثل "شيتل بن آدم" و"رام" و"شورباي" وغيرهم⁽¹²⁾.

ومن الباحثين من يذكر أن الصابئة "هي ديانة عازيموس الأول كانت في القديم من أعظم الأديان انتشارا في العالم وكان منشؤها في العراق وكعبتها حرّان، وهي في الأصل دين الكواكب السبعة والبروج الإثني عشر، ولتلك الكواكب هياكل مخصوصة وهي المتعبّدات الكبار يصوّرّون فيها تلك الكواكب ولهم زيادة على ذلك هيكل ثامن يسمّونه هيكل العلّة الأولى، وهم خمس فرق صابئة مشركة، وصابئة حنفاء، وصابئة فلاسفة، وصابئة معتدلون، وصابئة منكرون"⁽¹³⁾، علما أن عازيموس هذا يعرفه الشهرستاني بقوله : "يقال أن عازيمون وهرمس هما شيت وإدريس عليهما السلام، ونقلت الفلاسفة عن عازيمون أنه قال المبادئ الأولى خمسة : الباري تعالى، والعقل، والنفس، والمكان، والخلاء، وبعدها وجود المركبات ولم ينقل هذا عن هرمس"⁽¹⁴⁾، ومن

(11) برنجي (سليم) : الصابئة المندائيون، دراسة في تاريخ ومعتقدات القوم المنسيين، ص : 63

(12) المرجع نفسه، ص ص 64، 63.

(13) الثعالبي(عبدالعزیز) : محاضرات في تاريخ المذاهب والأديان، تقديم ومراجعة حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي بيروت، الطبعة الأولى 1985، ص : 22، 23، راجع أيضا : رسائل إخوان الصفا، تحقيق بطرس البستاني، دار صادر بيروت 1957، 4/295.

(14) الشهرستاني : الملل والنحل، تقديم صلاح الدين الهواري، دار مكتبة الهلال 1998، 2/57.

الجدير بالذكر أيضا في هذا المستوى أن مؤرخي الفكر الديني والفلسفي يذكرون في شأن هرمس "أن إخنوخ الذي ورد ذكره في التوراة هو ذاته إدريس الذي ورد ذكره في القرآن، وهو ذاته هرمس أو هرمس الهرامسة أو هرمس عطار دى الإغريق واثوك Enoch كما يذكر التراث المسيحي واليهودي" (15).

وهناك من الباحثين أيضا من ينسب الصابئة إلى عهد سيدنا نوح عليه السلام فقد قال ابن منظور في مادة "صبا" : "الصابئون قوم يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام.." (16)، وذكر الفيروز آبادي في القاموس المحيط نفس مقالة ابن منظور تقريبا : "...والصَّابُّونَ يزعمون أنهم على دين نوح، عليه السلام، وقبلتُهم من مَهَبِّ الشَّمالِ عند مُنتَصَفِ النَّهارِ.." (17)، مع العلم أن أتباع هذه الديانة يشيرون بنوح عليه السلام بوصفه نبيا قويا مجادلا هاديا للجهلة والضالين، وإن لم يستطع أن يهدي المعاندين الذين عمهم الطوفان، وبعد نوح يذكر الصابئة أن الله بعث لهم "سام بن نوح الأكبر" وقد قام بعدة إصلاحات وخلف بعد رحيله عدة تعاليم وحكم ووصايا توجد في "كنزاربا" الكتاب المقدس للصابئة (18).

ومن المهتمين بهذا الشأن أيضا من يرجع زمن النشأة والظهور إلى عهد سيدنا إبراهيم عليه السلام فلقد ذكر الرازي في كتابه "اعتقادات فرق المسلمين والمشركين" : "...ولمّا بعث الله إبراهيم عليه السلام كان الناس على دين الصبائية فاستدل إبراهيم عليه السلام عليهم في حدوث الكواكب كما حكى الله

(15) سباهي (عزيز) : أصول الصابئة ومعتقداتهم الدينية، ص : 139.

(16) ابن منظور : لسان العرب، 399/2.

(17) الفيروز آبادي : القاموس المحيط، دار الجيل بيروت، دت، 20/1.

(18) برنجي (سليم) : الصابئة المندائيون، دراسة في تاريخ ومعتقدات القوم المنسيين، ص ص 68-69.

تعالى عنه في قوله (لا أحب الآفلين) (19)، واعلم أن عبادة الأصنام أحدث من هذا الذين لأنهم كانوا يعبدون النجوم عند ظهورها ولما أرادوا أن يعبدوها عند غروبها لم يكن لهم بدّ من أن يصوِّروا الكواكب صورا ومثلا فصنعوا أصناما واشتغلوا بعبادتها فظهر من ههنا عبادة الكواكب (20). علما أن القائلين بهذه الرؤية يتحدثون إثر ذلك أيضا عن نبوة موسى عليه السلام وعن كيفية نجاة قومه من بطش فرعون الذي غرق جيشه وكان للناس آية.

ومن المختصين كذلك وهم كثر من يربط الصابئة بالنبي يحيى عليه السلام، المعروف باسم يهيا يهانا (يحي يوحنا) أسوتاوزكوتا نهويلي (سلام الله عليه)، وهو يعتبر عندهم رسولا بعثه الله إليهم، و"شخصية تاريخية مؤثرة جدا هي شخصية يحيى بن زكريا كما يعرف بالعربية، أو يوحنا المعمدان كما عرف بالأدب المسيحي نقلا عن الآرامية، أو يهانا يهانا كما ورد في الأدب المندائي، وقد اقترن اسمه بالتعميد الذي كان يجريه في نهر الأردن لليهود ولغير اليهود والذي أشارت إليه الأنجيل من بعد" (21).

هذا ويرى بعض الباحثين أيضا أن هذه الديانة (الصابئة) قد عرفها العرب وكان أغلبهم يدينون بها ويمثلون لتعاليمها، يقول عبدالعزيز الشعالبي في هذا السياق: "أثبت التاريخ أن أكثر العرب كانوا يدينون بالصابئة منذ القرون

(19) «وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَزْرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفَلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَنْ يَهْدِيَ رَبِّي لَالْكُوفَةِ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَحَاجَّةٌ قَوْمُهُ قَالَ اتَّحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿الأنعام : 74 - 81﴾

(20) الرازي (فخرالدين): اعتقادات فرق المسلمين والمشركون، دار الكتاب العربي بيروت 1986، ص ص 125، 126.

(21) سباهي (عزيز): أصول الصابئة ومعتقداتهم الدينية، ص: 113.

الأولى وقد اتخذوا لها الهياكل وسمّوها البيوت وجعلوها معابد يقدّسونها ويدينون بها يدلّ على ذلك أنّهم كانوا يسمّون أنفسهم عبدا لها كقولهم عبد شمس وعبد المشتري ونحو ذلك..⁽²²⁾، ويقول ابن عاشور مؤكّدا هذا الطرح أيضا : "ودين الصابئة كان معروفاً للعرب في الجاهلية، بسبب جوار بلاد الصابئة في العراق والشام لمنازل بعض قبائل العرب مثل ديار بكر وبلاد الأنباط المجاورة لبلاد تغلب وقضاة، ألا ترى أنه لما بعث محمد صلى الله عليه وسلم وصفه المشركون بالصابئ، وربما دَعَوْه بَابن أَبِي كَبْشَةَ الذي هو أحد أجداد أمانة الزهرية أمّ النبيء صلى الله عليه وسلم كان أظهر عبادة الكواكب في قومه فزعموا أن النبيء ورث ذلك منه وكذّبوا"⁽²³⁾.

أمّا في العصر الحالي⁽²⁴⁾ فإنّ الصابئة المندائيون هم الذين يتواجدون بالعراق، قرب مجاري المياه لارتباط عبادتهم بالاغتسال والتعميد كما لاحظنا، وهم يُعرفون بصابئة البطائح ويذكرون أن يحيى عليه السلام هو نبيهم المرسل إليهم وأن ديانتهم هي أوّل الأديان التي دعت إلى وحدانية الله الحي القيوم الواحد الأحد، وهم يحترمون بقية الأديان ويوقّرون الأنبياء والرسل، كما يشيرون إلى أن ديانتهم قد عرفت تاريخيا فترات ضعف وانزياح وهو ما يفسّر تعظيم بعض الأتباع الحرثانيين بالأساس الكواكب والنجوم والأوثان وغيرها..

إنّ ما يمكن الخلوص إليه أن بداية ظهور الصابئة على مسرح التاريخ لم تكن مضبوطة ومحدّدة التحديد اللازم الذي تطمئن إليه القلوب كما أشرت إلى ذلك بدءا، وأن ما قدّم يعود في معظمه إلى جملة من الافتراضات القابلة للصحة أو للخطأ على حدّ سواء، كما أن التأويلات المطروحة لم تتفق على مسألة

(22) الثعالبي(عبدالعزیز) : محاضرات في تاريخ المذاهب والأديان، ص : 258.

(23) ابن عاشور : التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، 1/536.

(24) الموقع الإلكتروني : [http : //www.khayma.com/bosaeed/adeaan/10.htm](http://www.khayma.com/bosaeed/adeaan/10.htm)

تصنيف أصحاب هذا المذهب هل هم ضمن أهل التوحيد والإيمان ؟ أو ضمن أهل الشرك والأوثان وعبد الكواكب والنجوم ؟

لا ريب أن ذلك التذبذب في الحسم والتصنيف، وعدم الركون إلى رأي مُطمئن يعودان بالأساس إلى جملة من الاعتبارات والأسباب لعل أهمها : غموض الديانة وعزوف أهلها عن التعريف بها أو نشرها، وتداخل تعاليمها مع الفكر الوضعي والفلسفي تداخلا كبيرا إلى حدّ التأثير والاقتراس، واحتكار المؤسسة الدينية للكتب الدينية الصابئة، وعدم التعريف بتلك الكتب وترجمتها، إضافة إلى عدم إلمام بعض المهتمين باللهجات الآرامية الشرقية والمندائية بالأساس، وافتقار أتباع الصابئة للثقافة الدينية وللمعرفة اللازمة للحفاظ على الهوية والتحاور مع الآخر في شأنها، كذلك غياب المرجعية الدينية الأساسية، هذا فضلا عن احتفاظ الفئة الكهنوتية بالأسرار الدينية وعدم إفشائها إلاّ للمترشح لهذه الفئة وبأقساط عندما يتمّ تكريمه⁽²⁵⁾.

وجدير بالملاحظة أيضا أن بعضا من هذه الأسباب والاعتبارات كان سببا كذلك في عدم ضبط الوسط الجغرافي أو المنشأ الجغرافي للصابئة، فقد ذهب بعض الباحثين إلى أن أصلهم يعود إلى مصر وبلاد كنعان وقد هاجروا إلى فلسطين التي استقروا فيها حيناً من الدهر، ثم ارتحلوا إلى العراق نتيجة الحروب التي حدثت بينهم وبين بني إسرائيل، يقول سالم الجحيلي في هذا الصدد : "فقد انتقل الصابئة وعلى مراحل من أرض مصر وكنعان إلى أرض فلسطين وفي فلسطين عاشوا بحرية تامة يمارسون معتقداتهم الدينية دون أية عوائق، وكان التعميد والذي يسمّى بالمندائية (مصبوتا) والذي هو من الأركان

(25) الموقع الإلكتروني : <http://www.alnoor.se/article.asp?id=39042>

الهامة في الديانة الصابئية، وبسبب وفرة المياه الجارية في فلسطين يمارس بحرية وعلى نطاق واسع..⁽²⁶⁾.

ونذكر باحثون آخرون أن أصل القوم يعود إلى فلسطين الموطن الأصلي للصَّابِئَة، وقد هاجروا إلى العراق بسبب ما تعرّضوا له من اضطهادات ومضايقات على يد اليهود، وهم يستندون في هذا الرأي إلى جملة من المعطيات والمستندات لعل أهمّها : الروايات الشفوية التي يردّها الصَّابِئَة أنهم كانوا بداية في فلسطين، يقول نعيم البدوي وغضبان رومي وهما من الصَّابِئَة ومترجما كتاب الليدي دراور (الصَّابِئَة المندائيون) : "وتمكن أهمية هذه الوثيقة في تأكيدها للروايات الشفوية التي يتناقلها الصَّابِئُون اليوم، وهي أنهم هاجروا إلى موطنهم الحالي في العراق من حران، وكانوا قبل ذلك في فلسطين"⁽²⁷⁾، ومن المعطيات المرجّحة لهذه الرؤية أيضا أن الصَّابِئَة تولي قيمة كبرى للنهر وللماء الجاري أو ما يسمّونه (يردنه)، وحينما كانوا يعيشون في فلسطين كانوا يتعمّدون في نهر الأردن، وقد كان النبي يحي يقوم بذلك للمؤمنين به، يقول محمد عمر حمادة في هذا السياق : "إِذَا عَلِمْنَا أَنَّ النَّبِيَّ يَحْيى كَانَ فِي فَلسطِين وبها قَتْل فالنتيجة الحتمية أن أتباعه كانوا من مجتمعه أي الفلسطينيين الذين اضطروا للفرار بدينهم هربا من اضطهاد اليهود لهم..⁽²⁸⁾، إضافة إلى هذا فاللغة التي يستعملها الصَّابِئَة هي الآرامية المندائية وقد كانت هذه اللغة هي المعتمدة في فلسطين في ذلك الظرف، في حين أن أبناء العراق كانوا

26) الجحيلي (سالم) : مقدّمة كتاب سليم برنجي : الصَّابِئَة المندائيون، دراسة في تاريخ ومعتقدات القوم المنسيين، ص : 23.

27) نعيم بدوي وغضبان رومي : مقدّمة كتاب الليدي دراور : الصَّابِئَة المندائيون، مطبعة الإرشاد بغداد 1969، ص : 15.

28) حمادة (محمد عمر) : تاريخ الصَّابِئَة المندائيين، ص : 39.

يستخدمون لغة أخرى مغايرة، كما أن أشكالهم وطريقة لبسهم تشبه كثيرا ما كان عليه الفلسطينيون مقارنة مع أهل العراق.

ومن الباحثين من يرى أن الصابئة يعودون إلى حرّان، بوصفها المدينة التي استوطنوا فيها كثيرا، يقول ياقوت الحموي في تعريفها : "... قيل سميت بهارّان أخي إبراهيم عليه السلام لأنه أوّل من بناها فعربت ف قيل حران، وذكر قوم أنّها أوّل مدينة بُنيت على الأرض بعد الطوفان وكانت منازل الصابئة وهم الحرّانيون الذين يذكّرهم أصحاب كتب الملل والنحل"⁽²⁹⁾، إضافة إلى هذا فإن المدينة (حران) تعتبر كعبة الصابئة وقد اشتهروا بها وأصبحوا يسمّون بالحرّانيين⁽³⁰⁾ نسبة لها، وقد عرفت المدينة كذلك تاريخيا عبادة الأوثان، وتقديس الكواكب والنجوم، وهو ما ذكره الباحثون في شأن الصابئة⁽³¹⁾، مع العلم أن ابن النديم يورد في الفهرست⁽³²⁾ قصة - ولئن دعا بعضهم إلى التحقيق فيها وإعادة النظر⁽³³⁾ - يروي فيها كيفية النقاء الخليفة العباسي المأمون (ت218هـ/833م) بجماعة من مدينة حرّان وسؤاله إيّاهم عن حقيقة ديانتهم، وقد التجّؤوا إلى تعريف مذهبهم بكونهم "صابئة" مستدلين على ذلك بما ورد في القرآن الكريم.

(29) الحموي(ياقوت) : معجم البلدان، دار صادر بيروت، 235/2.

(30) البيروني : الآثار الباقية عن القرون الخالية، مكتبة المثنى بغداد 1923، ص : 318، والفهرست لابن النديم، دار المسيرة، الطبعة الثالثة 1988، ص : 383، ومروج الذهب ومعادن الجواهر للمسعودي، تحقيق مصطفى السيد المكتبة التوفيقية مصر، ص : 223.

(31) الحمد(محمد عبد الحميد) : صابئة حران وإخوان الصفا، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق سوريا، الطبعة الأولى 1998 ص : 7

(32) ابن النديم : الفهرست، ص : 385.

(33) الحسيني(عبد الرزاق) : الصابئة قديما وحديثا، تقديم أحمد زكي باشا، المطبعة الرحمانية بمصر، د.ت، ص : 22-25.

ومن الباحثين من يركّز في حديثه عن الصابئة المندائيين على منطقة البطائح (جنوب العراق وإيران حيث دست ميسان⁽³⁴⁾) ومجاري دجلة والفرات بوصفها الإطار الذي يتواجد فيه الصابئة المندائيون اليوم⁽³⁵⁾ بالخصوص، وهم بهذا يميلون إلى التفرقة بين صابئة حرّان الذين عرّفوا تاريخياً عبادة الكواكب والنجوم والأوثان وغيرها، وبين المندائيين الذين ينبذون تلك العبادة، يقول المسعودي في هذا المجال وفي سياق ذكره لملوك الفرس الأولى : "إن هذا الرجل⁽³⁶⁾ أول من أظهر آراء الصابئة من الحرانيين والكيمايين، وهذا النوع

(34) سباهي (عزيز) : أصول الصابئة ومعتقداتهم الدينية، ص : 173.

(35) " الصابئة المندائيون الحاليون ينتشرون على الضفاف السفلى من نهري دجلة والفرات، ويسكنون في منطقة الأهوار وشط العرب، ويكثر في مدن العمارة والناصرية والبصرة وقلعة صالح والحلفاية والزكية وسوق الشيوخ والقرنة وهي موضع اقتران دجلة بالفرات، وهم موزعون على عدد من الألوية مثل لواء بغداد، والحلة، والدبوانية والكوت وكركوك والموصل. كما يوجد أعداد مختلفة منهم في ناصرية المنتفق والشرش ونهر صالح والجبايش والسليمانية.

• كذلك ينتشرون في إيران، وتحديداً على ضفاف نهر الكارون والندز ويسكنون في مدن إيران الساحلية، كالمحمرة، وناصرية الأهواز وشستر ونزبول.

• تهدمت معابدهم في العراق، ولم يبق لهم إلا معبدان في قلعة صالح، وقد بنوا معبداً مندياً بجوار المصافي في بغداد، وذلك لكثرة الصابئين النازحين إلى هناك من أجل العمل.

• يعمل معظمهم في صياغة معدن الفضة لتزيين الحلي والأواني والساعات وتكاد هذه الصناعة تنحصر فيهم لأنهم يحرصون على حفظ أسرارهما كما يجيدون صناعة القوارب الخشبية والحدادة وصناعة الخناجر.

• مهاراتهم في صياغة الفضة دفعتهم إلى الرحيل للعمل في بيروت ودمشق والإسكندرية ووصل بعضهم إلى إيطاليا وفرنسا وأمريكا."

الموقع الإلكتروني : <http://www.khayma.com/bosaeed/adeaan/10.htm>

(36) المقصود هو "بوداسف" الذي ظهر في عهد طهمورث أحد ملوك الفرس، وقد قال المسعودي متحدّثاً عنه : "...ثم ملك بعده طهمورث بن نوبجهان بن أرفخشذ بن أوشهنج، وكان ينزل سابور، وظهر في سنة من ملكه رجل يُقال له بوداسف أحدث مذاهب الصابئة، وقال : إن معالي الشرف الكامل، والصلاح الشامل، ومعدن الحياة، في هذا السقف المرفوع، وإن الكواكب هي المندبرات والواردات والصادرات، وهي التي بمرورها في أفلاكها وقطعها مسافاتها واتصالها بنقطة وانفصالها عن نقطة يتم ما يكون في العالم من الآثار : من امتداد الأعمار وقصرها، وترك البساط، وانسلاط المركبات، وتنظيم الصور، وظهور المياه وغيّضها، وفي النجوم السّيارة وفي أفلاكها التدبير الأكبر، وغير ذلك مما يخرج وصفه عن حد الاختصار والإيجاز، واحتذى به جماعة من نوي الضعف في الآراء ؟" مروج الذهب ومعادن الجوهر، 1/198.

والصَّابئة المعتدلون، والصَّابئة المنكرون، والصَّابئة المندائيون، وقد تناول المحدثون هذه الفرق بالدراسة والاهتمام⁽⁴²⁾.

مع العلم أن أغلب الصَّابئة يعتقدون اليوم من حيث المبدأ في وجود إله واحد خالق أزلي لا يدركه العقل ولا البصر ولا الخيال، وهم بهذا لا يختلف اعتقادهم في الظاهر عن اعتقاد المسلمين كثيرا، ما عدا افتراضهم صورة معنوية للإله خُلق آدم على نموذجها⁽⁴³⁾، كما يعتقدون في وجود وسائط روحانية تقوم بدور الوصل بين عالمي الأرض والسماء أي بين الإله والإنسان، وهم يعظمون أيضا في هذا السياق الكواكب بوصفها مسكن الملائكة وموطن القداسة.

ويعتقد أغلب الصابئة أيضا في نبوة يحي عليه السلام باعتباره المرسل إليهم من طرف الإله من أجل الهداية والإرشاد كما لاحظنا سابقا، ولديهم معبد يكنى "المندي" وقد يسمّى أيضا "مشكنا" (وتعني البيت) توجد فيه كتبهم المقدسة "ويجري فيه تعميم رجال الدين، يقام على الضفاف اليمنى من الأنهر الجارية، له باب واحد يقابل الجنوب بحيث يستقبل الداخل إليه نجم القطب الشمالي، ولا بدّ من وجود قناة فيه متصلة بماء النهر، ولا يجوز دخوله من قبل النساء، ولا بدّ من وجود علم يحيى فوقه في ساعات العمل"⁽⁴⁴⁾.

والجدير بالملاحظة في هذا المستوى أن الصابئة تأثروا في سياق تقرير عقائدهم وتصوّراتهم الدينية بعدد المرجعيات والثقافات سواء أكانت دينية مثل (اليهودية، والمسيحية، والمجوسية والإسلام) أو فكرية وفلسفية مثل (الفلسفة اليونانية والأفلاطونية المحدثّة، والوثنية القديمة..)، وهم يستندون في الأثناء

(42) الثعالبي(عبدالعزیز) : محاضرات في تاريخ المذاهب والأديان، ص ص : 23-30.

(43) الحسيني(عبدالرزاق) : الصابئة قديما وحديثا، ص : 28.

(44) الموقع الإلكتروني : <http://www.khayma.com/bosaeed/adeaan/10.htm>

أيضا إلى جملة من المرجعيات والكتب الدينية الهامة لعلّ أبرزها : (الكنزاريّا : وهو الكتاب العظيم لديهم ويعتقدون أنه صحف آدم عليه السلام، وكتاب دراشة إديهيا : أي تعاليم يحيى وفيه ذكر لتعاليم النبي يحيى عليه السلام وحياته، وكتاب الفلسّا : الذي يتعلّق بمراسم الزواج والنكاح، وكتاب سدرة إدنشمانّا : ويهتمّ بالتعميد ومراسم الموت وما بعده، وكتاب الديونان : وفيه قصص لبعض الروحانيين، وكتاب إسفر ملواشه : ويهتم بالبروج وعلوم الفلك والتنجيم، وكتاب النيانى : وهو أناشيد وأدكار دينية، وكتاب قماها ذهيقل زيوا : وهو عبارة عن تحصيل من الأذى، وكتاب تفسير بغره : ويهتم بالجانب الجسدي والطبي للإنسان، وكتاب ترسرر ألف شياله : وهو عبارة عن أجوبة دينية لكيفية أداء الشعائر والطقوس. وكتاب ديوان طقوس التطهير : ويهتم بكيفية التعميد ومتعلقاته، وكتاب كداواكدفياتا : أي كتاب العوذ⁽⁴⁵⁾).

أمّا عبادات الصابئة⁽⁴⁶⁾ فتتجلّى بالأساس في عملية الطهارة (الوضوء والغسل) التي تكون في الماء الجاري، وهي عملية ضرورية وأساسية لكلّ صابئ رام انتهاج هذا المسلك الديني أو الاصطباج بصباغة الصابئة، وتتمثّل أيضا في عملية التعميد (Baptisme) وهي من أبرز معالم الطقوس الصابئية وتسمّى في الأرامية (مصبوتا أو مصبوتا)، علما أنّه تتّم هذه العملية على أيدي رجال الدين، وتكون عادة في الحالات التالية : الولادة، والزواج، وعماد الجماعة، وعماد الأعياد، وعماد المحتضر⁽⁴⁷⁾، ومن عبادات الصابئة : الصلاة وهي طقس تعبديّ يؤدّى ثلاث مرّات في اليوم قبيل الشروق، وعند الزوال، وقبيل الغروب، وتستحبّ أن تكون جماعة في أيام الأحاد والأعياد، فيها وقوف

(45) برنجي (سليم) : الصابئة المندائيون، دراسة في تاريخ ومعتقدات القوم المنسيين، ص : 180-182، وانظر كتاب "أصول الصابئة ومعتقداتهم الدينية" لعزیز سباهي، ص : 13-16.

(46) محمد عمر حمادة : تاريخ الصابئة المندائيين، ص : 87 وما بعدها.

(47) الموقع الإلكتروني : <http://www.khayma.com/bosaeed/adeaan/10.htm>

وركوع وجلوس على الأرض من غير سجود، وهي تستغرق ساعة وربع الساعة تقريباً يتوجّه المصلّي خلالها إلى الجدي بلباسه الطاهر، حافي القدمين، يتلو سبع قراءات يمجد فيها الربّ مستمداً منه العون طالباً منه تيسير اتّصاله بعالم الأنوار⁽⁴⁸⁾، هذا إضافة إلى الصوم⁽⁴⁹⁾ والصدقة المباركة (زدقة بريخة)⁽⁵⁰⁾.

أمّا حياة الصابئة الاجتماعية فلها تقاريرات وتشريعات خاصّة أيضاً تميّزوا بها عن غيرهم من أهل الملل والأهواء والنحل، سواء تعلّق الأمر بتقاليد الزواج والولادة والأعياد أو بمراسم الموت والميراث وغيره، أو بطبقات رجال الدين ومراتبهم⁽⁵¹⁾.

3 - الصابئة في آيات القرآن الكريم :

لئن شاب أغلب المصادر والمراجع التي اهتمّت بموضوع الصابئة التنبذب والاضطراب وعدم الدقّة والحسم خاصّة في تقرير حقيقة القوم من حيث الظهور التاريخي والموطن الأصلي، وفي بيان بعض الأفكار والتصورات الفكرية والدينيّة، فإنّ العودة إلى الآيات القرآنية التي تعرّضت إلى الصابئين تشكّل أو تمسي في الحقيقة لازماً منهجياً وعلمياً ضرورياً للتعرف على النحلة وخصائص أتباعها أكثر.

(48) المرجع الإلكتروني نفسه.

(49) "الصابئة اليوم يحرمون الصوم لأنّه من باب تحریم ما أحل الله، لكنهم يمتنعون عن أكل اللحوم المباحة لهم لمدة (36) يوماً منفردة على طول أيام السنة - ابن النديم المتوفى سنة 385هـ في فهرسته، وابن العبري المتوفى سنة 685هـ في تاريخ مختصر الدول ينصان على أن الصيام كان مفروضاً عليهم لمدة ثلاثين يوماً من كل سنة." المرجع الإلكتروني السابق.

(50) حمادة(محمد عمر) : تاريخ الصابئة المندائيين، ص : 130.

(51) المرجع نفسه، ص : 135 وما بعدها.

لقد ورد ذكر الصابئة في ثلاث آيات قرآنية : في سورة البقرة حيث يقول العليّ القدير : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (52)، وفي سورة المائدة حيث يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (53)، وفي سورة الحج حيث يقول سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (54).

إنّ المتأمل في هذه الآيات الكريمة يسجل منذ البدء ذكر القرآن الكريم للصابئة ضمن عدّة نحل ومذاهب هي في الغالب معلومة ومعروفة لدى علماء التاريخ والأديان، بينما الصابئة لم يكن علماء الحديث والتفسير يعلمون عنهم أكثر مما نعلم لكن اسمهم كان واردا في القرآن واليقين راسخ في صحّة النص القرآني الذي لا يأتيه الباطل» (55).

إنّ هذا الذكر للقوم الذي ورد في سياق الحديث عن بقية الملل والنحل يجعلنا نطرح في الواقع الافتراضات أو التساؤلات التالية، وذلك بغض النظر عن المعطيات التاريخية، وما خطّه القدامى في شأنهم : هل أن الصابئة نحلة دينيّة ينسحب عليها ما ينسحب على بقية الأديان والنحل ؟ أم أنّها فرقة أو مذهب من صنع البشر تخضع لمعياري الصحّة والخطأ شأنها في ذلك شأن بقية

(52) البقرة : 62.

(53) المائدة : 69.

(54) الحج : 17.

(55) تاريدو (ميشيل) : صابئة القرآن وصابئة حران، ترجمة سلمان حروفوش، دار الكلمة للنشر والتوزيع دمشق سوريا، الطبعة الأولى 1999، ص 40.

الفرق والمذاهب ؟ ثم هل أن الصابئة من الذين آمنوا وعملوا الصالحات واستحقوا بذلك المدح والثناء القرآنيين ؟ أم أنهم من الذين أشركوا وأنكروا وعاندوا وسيفصل الله تعالى بينهم يوم القيامة ؟

لا ريب أن الإجابة عن هذه التساؤلات وبيان حقيقة القوم يكمنان حقاً في العودة إلى الآيات القرآنية ذاتها وتأمل مفهوماتها ومعانيها وتفسيراتها تأملاً رصينا يزيج كل غموض وبجليّ اللغز الصابئي تجلية واضحة.

لقد أسهب ابن عاشور حقيقة في تفسير كلمة "الصَّابئين" الواردة في سورة البقرة، وذكر جملة من المعطيات والدلالات اللغوية والمعنوية للمفردة، وأشار إلى أن صابئة القرآن هم من أهل الفضل والخير وقد سبق الحديث عنهم في إطار المدح والتنويه مع جماعة أخرى من أهل الإيمان والتوحيد والتقوى، إذ يقول خاصة حينما يتحدث عن المؤمنين الذين استهلّت بهم الآية : "وابتدئ بذكر المؤمنين للاهتمام بشأنهم ليكونوا في مقدّمة ذكر الفاضلين فلا يذكر أهل الخير إلا ويذكرون معهم.." (56)، فالَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ إِنْ هُمْ جَمِيعًا مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ وَالْفَضْلِ إِنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا، ولم يستثن القرآن الكريم أيّ نحلة منهم، يقول ابن عاشور أيضاً في سياق الإشادة بالصابئة أهل الفضل الذين يرتجى منهم كل خير : "...ووجه الاختصار في الآية على ذكر هذه الأديان الثلاثة مع الإسلام دون غيرها من نحو المجوسية والدهريين والزنادقة أن هذا مقام دعوتهم للدخول في الإسلام والمتاب عن أديانهم التي أبطلت لأنهم أرجى لقبول الإسلام من المجوس والدهريين لأنهم يثبتون الإله المتفرد بخلق العالم ويتبعون الفضائل على تفاوت بينهم في ذلك، فلذلك اقتصر عليهم تقريباً لهم من الدخول في الإسلام.." (57).

(56) ابن عاشور : التحرير والتنوير، 1/532.

(57) ابن عاشور : التحرير والتنوير، 1/538.

على هذا الأساس يتبدّى لنا بحسب هذا التفسير (ابن عاشور) أن الصابئة الذين ورد ذكرهم في سورة البقرة هم من الحنفاء الفاضلين المؤمنين بالله واليوم الآخر العاملين للصالحات، ولعلّ هذا ما ينسجم مع الطرح الذي تبناه أبو حنيفة سابقا والذي أورده الألوسي في تفسيره روح المعاني حينما قال : "والإمام أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه يقول إنهم ليسوا بعبدة أوثان وإنما يعظّمون النجوم كما تعظّم الكعبة..." (58).

لا ريب أن هذه الرؤية الإيجابية هي التي دفعت بعض الفقهاء والمفسّرين إلى إلحاق الصابئة أو تصنيفهم ضمن أهل الكتاب (59)، وإن كان ابن عاشور يعلّق على هذا الإلحاق أو التصنيف تعليقا يستشفّ منه إجماعه عن مساندة ذلك الاتجاه الذي ارتآه أبو حنيفة ومن تابعه، إذ يقول : ".فالذي يغلب على ظني في قول أبي حنيفة أنّه شاهد قوماً منهم يظهرون أنّهم نصارى تقيّة، وهم الذين كانوا بناحية البطائح وكسكر ويسمّيهم النصارى يوحناسيّة وهم ينتمون إلى يحيى بن زكرياء، وينتحلون كتباً يزعمون أنّها التي أنزلها الله على شيث ويحيى..." (60).

إنّ ما تجدر ملاحظته أيضا في هذا المستوى أن ابن عاشور وهو يفسّر الآية الكريمة، ويصبو إلى التعريف بالجماعة، قد استند إلى جملة من المعطيات التاريخية جعلته يستخلص أن أولئك الذين عدّدهم القرآن ضمن أهل الإيمان والتقوى قد أحدثوا الحوادث وزاغوا عن الصراط المستقيم في مراحل تاريخية لاحقة، وخصوصا أولئك الذين هم "بناحية حرّان وهم عبدة أوثان لا ينتمون إلى

(58) الألوسي : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 279/1.

(59) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم، دار الجيل بيروت، د.ت، 1/ 98-100.

(60) ابن عاشور : التحرير والتنوير، 1/ 537.

أحد من الأنبياء ولا ينتحلون شيئاً من كتب الله فلا خلاف بين الفقهاء في أنهم ليسوا أهل كتاب، وأنه لا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم" (61).

إنه اعتماداً أيضاً على تلك المعطيات عرّف ابن عاشور دين الصابئة بقوله : "وجامع أصل هذا الدين هو عبادة الكواكب السيّارة والقمر وبعض النجوم مثل نجم القطب الشمالي وهم يؤمنون بخالق العالم وأنه واحد حكيم مقدّس عن سمات الحوادث غير أنهم قالوا : إنّ البشر عاجزون عن الوصول إلى جلال الخالق فلزم التقرب إليه بواسطة مخلوقات مقربين لديه وهي الأرواح المجرّدات الطاهرة المقدّسة وزعموا أن هذه الأرواح ساكنة في الكواكب وأنها تنزل إلى النفوس الإنسانية وتتصل بها بمقدار ما تقترب نفوس البشر من طبيعة الروحانيات فعبدوا الكواكب بقصد الاتجاه إلى روحانياتها.." (62).

الملاحظ أن هذا التعريف يتفق أيضاً مع ما اختاره الرازي سابقاً وأورده في تفسيره لآية البقرة حينما قال : "...الأقرب أنهم قوم يعبدون الكواكب، ثم لهم قولان الأول أن خالق العالم هو الله سبحانه، إلا أنه سبحانه أمر بتعظيم هذه الكواكب واتخاذها قبلة للصلاة والدعاء والتعظيم، والثاني أن الله سبحانه خلق الأفلاك والكواكب، ثم إنّ الكواكب هي المدبرة لما في هذا العالم من الخير والشرّ والصحة والمرض، والخالقة لها فيجب على البشر تعظيمها لأنها هي الآلهة المدبرة لهذا العالم ثم إنها تعبد الله سبحانه، وهذا المذهب هو القول المنسوب إلى الكلدانيين الذين جاءهم إبراهيم عليه السلام راداً عليهم ومبطلاً لقولهم" (63).

(61) ابن عاشور : التحرير والتنوير، 537/1.

(62) المصدر نفسه، 534/1.

(63) الرازي : التفسير الكبير، دار الكتب العلمية، طهران، الطبعة الثانية، 105/3.

وينسجم تعريف ابن عاشور للصابئة المستمد من الواقع التاريخي بالأساس مع عدد من المفسرين الآخرين أيضا حيث يقول الألوسي في روح المعاني مثلا في شأنهم : "والصابئين هم قوم مدار مذاهبهم على التعصب للروحانيين واتخاذهم وسائل ووسائل لم يتيسر لهم التقرب إليها بأعيانها والتلقي منها بذواتها فرعت جماعة منهم إلى هياكلها، فصابئة الروم مفزعها السيارات، وصابئة الهند مفزعها الثوابت، وجماعة نزلوا عن الهياكل إلى الأشخاص التي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عن أحد شيئا، فالفرقة الأولى هم عبدة الكواكب، والثانية هم عبدة الأصنام وكل من هاتين الفرقتين أصناف شتى مختلفون في الاعتقادات والتعبّادات" (64).

بناء على هذا حقيق علينا أن نفرّق بين صابئة القرآن أهل الفضل المرتجى، وبين صابئة الواقع التاريخي الذين اتخذوا من عبادة غير الله تعالى ديدنا لهم، بمعنى آخر حريّ بنا أن نعي أن أتباع الصابئة قد انقسموا إلى قسمين : أحدهما حافظ على فطرته الأولى وعلى إيمانه بالله واليوم الآخر وعمل صالحا وكان من الأمنين الفائزين بالسعداء، ولعلّ هذا القسم هو الذي ينطبق عليه الحديث القرآني في آيتي البقرة والمائدة بالخصوص حيث كان رجاء الإيمان وإمكان الفلاح منهم واضحين، وذلك مقارنة مع آية الحج التي ذكرت ست أمم مختلفة منها الشقيّ ومنها السعيد، وجميعها تنتظر الفصل يوم القيامة والحساب.

أمّا القسم الثاني فقد شوّه فطرته، وأعمى بصيرته، وأتبع سبيل الغاوين، وكان الشيطان له وليا وقرينا، حيث عبد من دون الله ما لا يملك له نفعا ولا ضرا، وتجاهل عبادة الحقّ السميع العليم، ولعلّ هذا القسم هو الذي تحدّث عنه

(64) الألوسي : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، 1/279.

علماء التاريخ والأديان في سجلاتهم، وذكروا له جملة من الظواهر المَشينة الخاصة به.

إن هذه التفرقة بين قسَمي الصابئة تتأكد كذلك حينما نتابع ابن عاشور وهو يفسر كلمة "الصَّابئون" في سورة المائدة، إذ يميّز بين صابئة الإيمان الذين يستحقّون المدح والإشادة والتنويه مثل بقية النحل المؤمنة كما ورد ذلك في الآية الكريمة، والذين يمكن اعتبارهم من أهل الفضل والكتاب الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وتمسّكوا بدينهم، وداوموا على ذلك، ولم يغيّروا شيئاً فيه، حيث يقول في هذا السياق : "معنى (من آمن بالله واليوم الآخر) من آمن ودام، وهم الذين لم يغيّروا أديانهم بالإشراك وإنكار البعث، فإنّ كثيراً من اليهود خلطوا أمور الشّرك بأديانهم وعبدوا الآلهة كما تقول التّوراة، ومنهم من جعل عزيزاً ابناً لله، وإنّ النّصارى ألّهُوا عيسى وعبدوه، والصابئة عبدوا الكواكب بعد أن كانوا على دين له كتاب.."⁽⁶⁵⁾، وبين صابئة الواقع التاريخي في مرحلة البعد عن الهدى والانحراف عن الصراط القويم حيث يقول : "لما كان الصابون أبعد عن الهدى من اليهود والنّصارى في حال الجاهلية قبل مجيء الإسلام، لأنّهم التزموا عبادة الكواكب، وكانوا مع ذلك تحقّ لهم النّجاة إن آمنوا بالله واليوم الآخر وعملوا صالحاً، كان الإتيان بلفظهم مرفوعاً تنبيهاً على ذلك..."⁽⁶⁶⁾.

إنّ ما يستفاد من ابن عاشور وغيره من المفسّرين أن الاختلاف بين العلماء والمؤرّخين حاصل في تحديد حقيقة الصابئة⁽⁶⁷⁾، وفي إجراء الأحكام

(65) ابن عاشور : التحرير والتنوير، 270/6.

(66) المصدر نفسه، 271/6.

(67) الطبري : جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الفكر، بيروت، 1988م، 321-318/1.

عليهم، فمنهم من عدّهم من أهل الكتاب، ومن ثمة شرّع أخذ الجزية عنهم⁽⁶⁸⁾، ومنهم من اعتبرهم من أهل الزيغ والضلال، ومن عبّاد الملائكة والكواكب والأوثان تبعاً لما أخبر به التاريخ عنهم، ومنهم من خلط في تحديد أصولهم ومرجعياتهم فذكر أنّهم طائفة بين اليهود والمجوس، ومنهم من قال إنّهم بين النصارى والمجوس، ومنهم من قال إنّهم الخارجون عن الأديان جميعاً، مثلما تحدّث عن ذلك ابن كثير حينما قال : "وأظهر الأقوال والله أعلم قول مجاهد ومتابعيه ووهب بن منبه : أنّهم قوم ليسوا على دين اليهود ولا النصارى ولا المجوس ولا المشركين، وإنّما هم قوم باقون على فطرتهم ولا دين مقرر لهم يتّبعونه ويقتفونه، ولهذا كان المشركون ينزّون من أسلم بالصابئي، أي أنّه قد خرج عن سائر أديان أهل الأرض إذ ذاك، وقال بعض العلماء الصابئون الذين لم تبلغهم دعوة نبي، والله أعلم"⁽⁶⁹⁾.

ولكن الملاحظ أنّ جلّ التّأويلات والأطروحات تظل حقيقة مجردة افتراضات لم ترتق بعد إلى مستوى اليقين والضبط اللازمين.

ومما يستفاد أيضاً أنّ الصابئة سواء أكانوا حنفاء من أهل الإيمان والتقى أو من عبّاد الكواكب والأوثان تظلّ أبواب النجاة والرحمة والغفران مفتوحة أمامهم حينما يؤمنون جميعاً برّبهم، ويستقيمون على الطريقة ويعملون صالحاً، أي أنّ الفوز الحقيقيّ هو الذي يتأسّس على العمل الصالح، ويكون مرتبطاً أو معتمداً على الإيمان بالله تعالى⁽⁷⁰⁾ وعلى الوفاء بشروطه ومستلزماته، يقول

(68) ابن قيم الجوزية : أحكام أهل النّمة، تحقيق طه عبدالرؤوف سعد، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الثانية سنة 2002، 84/1.

(69) ابن كثير : تفسير القرآن، 100/1.

(70) يقول ابن عاشور في تفسير قوله تعالى : " ومعنى (من آمن بالله) الإيمان الكامل وهو الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم بقرينة المقام وقرينة قوله : (وعمل صالحاً) إذ شرط قبول الأعمال الإيمان الشرعي لقوله تعالى : (ثم كان من الذين آمنوا) [البلد : 17] وقد عدّ عدم الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم بمنزلة عدم الإيمان بالله لأنّ مكابرة المعجزات، القائمة مقام تصديق الله تعالى للرسول المتّحدي بها يؤوّل إلى تكذيب الله تعالى في ذلك التصديق فذلك المكابر غير مؤمن بالله الإيمان الحق.. " التحرير والتنوير، 539/1.

الرازي في هذا الصدد : "...لُعِرف أن جميع أرباب الضلال إذا رجعوا عن ضلالهم وآمنوا بالدين الحق فإن الله سبحانه وتعالى يقبل إيمانهم وطاعتهم ولا يردّهم عن حضرته البتة..."⁽⁷¹⁾.

4- أدب الحوار مع "الصابئة" :

إنّ ما لاحظناه من سماحة إسلامية في النظرة إلى الصابئة عموماً، وخاصةً إلى أولئك الذين يؤمنون بالله وباليوم الآخر ويعملون الصالحات، وما حظي به هذا "الدين" من شرف الذكر في القرآن، واعتبار بعض الفقهاء والمفسرين المسلمين أتباعه أهل كتاب، يحثنا كلّ ذلك في الواقع على ضرورة التعرّف أو الاهتمام بأدب الحوار اللازم مع هؤلاء، وعلى الأسلوب أو النمط الأمثل في كيفة التعامل معهم، خصوصاً وأن الصابئة المندائيون اليوم يتبرّؤون من الانحرافات التي وقع فيها أسلافهم⁽⁷²⁾، ومن الاتهامات والصّور النمطيّة التي تلقى عليهم هنا وهناك من أجل التشويه وتغييب الحقيقة والواقع، هذا فضلاً عن كونهم كما يقول ابن عاشور : "أرجى لقبول الإسلام من المجوس والدهريين لأنهم يثبتون الإله المتفرد بخلق العالم ويتبعون الفضائل على تفاوت بينهم في ذلك..."⁽⁷³⁾، ولا ريب أن ما ورد في كتابهم المقدّس الكنزاريّا (الكنز الكبير) أو صحف آدم عليه السلام يؤيّد هذا المعنى ويفيد إقرارهم بالوحدانية والتفرد الإلهيين حيث جاء فيه : "بسم الله المتعال، لا أمارس طقوسي بالنار، ولست يهودياً أو مسيحياً ولكنّي أمارسها بالماء الجاري الطاهر الذي وهبه الله من أجل نظافة البشر ومنحهم الحياة ذلك الماء الجاري الذي لا يشكّ أحد في أن يطهّرني من كل القذرات الماديّة والمعنويّة، ليباركني الله الواحد الأحد

(71) الرازي : التفسير الكبير، 105/3.

(72) انظر الموقع الإلكتروني : www.shurouk.org/forum/showthread.php?t=735

(73) ابن عاشور : التحرير والتنوير، 538/1.

المتعال..⁽⁷⁴⁾، وهم يقولون أيضا في هذا السياق معرّفين ديانتهم : "يمكننا القول للجميع من أننا قوم موحدون، نؤمن بالله الحيّ القيّوم سبحانه واليوم الآخر، وإنّ ديننا الصابئي الحنيف من أول الأديان التي دعت إلى وحدانية الهيّ ربّي الله الحيّ المركزيّ مسبّح اسمه كما جاء في كتابنا المقدس الكنزاريا : واحد أحد العزيز الحكيم العليم البصير سلطان الأشياء كلّها لا يرى ولا يحُدّ ليس له كفواً ولا شريك له بسلطانه وهو الربّ العليّ..⁽⁷⁵⁾".

إضافة إلى ذلك فهم يوقّرون الرسل والأنبياء وخصوصا يحيى عليه السلام الذي نوّه به القرآن الكريم وأشاد بخصاله في عدّة مواضع مثل قوله تعالى : ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمَحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ⁽⁷⁶⁾، وقوله عز وجلّ : ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا وَبَرًّا بوالديه وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ ⁽⁷⁷⁾.

إنّ هذه الإشارات الإيجابية تشجّع حقيقة على ضرورة التواصل مع الصابئة، خصوصا وأنّه قد أُمسى التفاعل والتعاون اليوم ليس فقط مع الصابئة وإنّما مع جميع الأطياف والملل والنحل ضرورة ملحة تقتضيها ضغوطات الواقع ومتطلّبات النصّ الدينيّ معا.

فأمّا الواقع فإنّه يشهد وجود الصابئة وغيرهم من الملل والنحل، وعلى المسلم التعامل معها جميعا خاصّة وأنّ العالم أصبح قرية كونية صغيرة تقاربت

(74) الكنزاريا : كتاب الصابئة المقدّس، نقلا عن سليم برنجي : الصابئة المندائيون، ص : 35.

(75) الموقع الإلكتروني : <http://www.alnoor.se/article.asp?id=39042>

(76) آل عمران : 39.

(77) مريم : 12 - 15.

المسافات بين أطرافه، وتأثر القريب منه بالبعيد وكذلك العكس، ولم يعد بالإمكان الانزواء وراء جدران متقوقعة، ولا الاكتفاء بما تنتجه الذات فحسب، هذا إضافة إلى التحديات المختلفة والإرهاصات الثقافية الدولية الراهنة.

وأما النص الديني فإن فيه من الدلالات والتعاليم ما يجعل التواصل والحوار مع الصابئة وغيرهم ممكنين بل وضروريين تبعا لأهداف النص ومغايه المميّزة، فلقد ورد في هذا السياق مثلاً في كتاب الله العزيز قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (78)، وجاء في سورة النحل : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (79)، وجاء في سورة يونس : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (80)، وورد في سورة المائدة : ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شُرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (81).

لا ريب أن هذه الآيات الكريمة تحثّ المؤمن على الحوار الصادق الخالص، وعلى ضرورة التعرف على الآخر من أجل بيان الحقّ وسبل الرّشاد ومن أجل تنبيه المتحاور معه إلى نقاط ضعفه وقوّته أيضاً، وذلك قصد الالتقاء والاتفاق على كلمة سواء يكون فيها الله الصمد هو المعبود وحده دون سواه، وقصد الاتفاق أيضاً على ما يخدم الإنسانية جمعاء ويقدم لها الخير والمنافع،

(78) آل عمران : 64.

(79) النحل : 125.

(80) يونس : 99.

(81) المائدة : 48.

ويجلب لها المصالح، ويدراً عنها الشرور والحروب، ويحقق لها السلام والوئام والتآلف والتعاون.

على هذا الأساس إذن يمكن القول إنّ الصابئة تحتاج منّا اليوم حقيقة مجهوداً معرفياً جاداً يجلّي "اللغز الصابئي"، ويوضح حقيقة ما أشكل توضيحاً شافياً يدفع إلى التعاون والتواصل والتفاهم وبناء جسور تواصل بين مختلف الأطياف والملل والنحل والثقافات والحضارات بناءً متيناً وصادقاً يحقق الخير والتقارب والتعاون والوئام لا في الحاضر وعلى مستوى أجيال اليوم فحسب، وإنما في المستقبل الآتي وعلى مستوى أجيال الغد أيضاً.

وتحتاج منّا الصابئة أيضاً كما نحتاج منهم كذلك إلى كلمة طيبة تقرّب المسافات، وتبعد الضغائن والأفكار المغلوطة، وتوضح الحقائق، وتثير سبل الرشاد، إلى كلمة طيبة حقاً نتذكر بها ونعتبر وتؤتي أكلها كل حين كما قال العليّ القدير : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ (82).